

مدرسة التاريخ



« (لَقَدْ كَانُوا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً ۗ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانُوا حَادِثًا يُفْتَرَى
وَلَكِنْ تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ۗ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف / 111) .

(وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۗ أَنْفُسَهُمْ ۗ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ ۗ كَيْفَ
فَعَلْنَا بِهِمْ ۗ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ) (إبراهيم / 45) .

(لِيَذَّكَّرْتُمْ ۗ تَذَكُّرًا ۗ وَتَعْيِبَهَا أُولَئِكَ ۗ وَالْحَاقَّةُ / 12) .

ويتحدث القرآن عن تجارب الشعوب والأمم، ومسيرة التاريخ، وحوادث الماضي، خيرها وشرها ليثقف الأجيال، وليتخذ من التاريخ معلماً ومدرسة وخبرة إنسانية فاعلة. يتحدث له عن الهدى والضلال وعن الصراع الفكري والعقدي بين الأنبياء (ع) وبين الطواغيت والمجرمين، ويتحدث عن تسلط الطواغيت والإرهاب ويتحدث عن خيرات الطبيعة وظروف المعيشة والاقتصاد، وما فيها من رخاء ونعمة واستقرار، ومن

ضيق وعسر ويتحدث عن الظلم والاستكبار والمستضعفين ويتحدث عن كوارث الطبيعة وآثرها في حياة الإنسان.

ويتحدث عن السنن والقوانين التي تتحكم في مسيرة الحوادث والوقائع، ليثقف الإنسان ويوضح له ان حركة التاريخ والمجتمع تجري وفق قوانين و سنن، وليست حركة عشوائية.

إن هذه القوانين والسنن تنطبق على إنحلال الدول والحضارات وسقوط الأمم وتدهورها، كما تنطبق على رقيها وتقدمها، فكل أحداث التاريخ وحركة المجتمع، سواء التصاعدية المتطورة منها، أو الحركة التنازلية نحو السقوط والتدهور والانهيـار- انما تجري وفق قوانين و سنن إلهية، وبعبارة أخرى كما تنطبق قوانين العلية والسببية في عالم الطبيعة، كما في قوانين الفيزياء والكيمياء وعالم الأحياء، فكلما وجد السبب وتوفرت الشروط والظروف اللازمة والمتمثلة أعطت نتائج متمثلة وفي أي زمان ومكان.. فإنها تجري على وقائع المجتمع والتاريخ الإنساني وحوادثه، فكل حركة التاريخ والمجتمع تجري وفق قوانين و سنن، وان تكرر تلك العلل والأسباب أو الظروف ينتج عنه تكرر الوضع الاجتماعي والتاريخي نفسه، وينبغي أن نوضح هنا ان الفارق بين حوادث الطبيعة، سواء الطبيعية أو المختبرية تجري بصورة قسرية، اما في عالم الإنسان والمجتمع فتجري الوقائع والحوادث بصورة اختيارية فالإنسان حر مختار وهو الذي يدفع نفسه تحت طائلة القانون التاريخي فيفقد اختياره باختياره.

لذا نجد القرآن يحذر من تكرار الأوضاع التاريخية التي مارسها الطغاة والمفسدون والمجرمون والظالمون، وقادة الكفر والجاهلية والضلال لئلا يحل بالأجيال المتلقية لهذا التحذير والتثقيف ما حل بالماضي من كوارث وخراب ودمار، ذلك ما نقرأه في قوله تعالى:

(لَقَدْ كَانُوا فِي قَمَحِهِمْ عَيْدِرَةً ۗ لِلْأُولَى الْأَلْدِيَابِ مَا كَانُوا حَدِيثًا يُفْتَرَى
وَلَكِنَّ تَصَدِيقَ الَّذِي بَيَّنَّ يَدَايَهُمْ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف/ 111).

عبرة وموعظة ودرسا لأصحاب العقول الذين يعون فلسفة التاريخ، وتجربة الماضي، ودلالة الحدث مفسراً بعن أسباب حدوثه، وتجسد آثاره ونتائجه.

والقرآن يتحدث عن طواغيت الأرض والمفسدين فيها، وعن المصير الذي حل بهم، ويحذر من تكرار المشهد والسلوك الطاغوتي والتسلطي، وكثيراً ما يركز القرآن على الظاهرة الفرعونية باعتبارها اسوأ

كَانَ اللَّاهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنََّّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (فاطر/ 42-44).

ومن سنن □ تعالى وقوانين التغيير الاجتماعي ما جاء في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرعد/ 11).

وهكذا يعرض القرآن تعريفاً واضحاً للإنسان، ويوضح أنّ ما جرى في الماضي قد جرى وفق سنن وقوانين انطبقت لأسباب وموجبات، وذكر من هذه الأسباب الظلم والطغيان والكفر والاستكبار والفساد والظلم والجريمة، وأنّ أي مجتمع تكثر فيه هذه الطواهر فسينطبق عليه القانون الإلهي، قانون العقاب والدمار والخراب.

وفي هذه الآيات، وفي آيات أخر يدعو القرآن الإنسان إلى أن يسير في الأرض فينظر آثار الأمم والشعوب الماضية، ويرى ما حلّ بها من خراب ودمار؛ ليكون ما يشاهده درساً وموعظة فلا يكرر ما فعلوه؛ لئلا يحل بالحاضرين ما حل بالماضين.. نقرأ من هذه البيانات: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) (النمل/ 69).

(وَلَقَدْ أَهَلَّكَ نَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكَ لِمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) (يونس/ 13).

(وَكَمِ أَهَلَّكَ نَا مِنْ قَرِيَّةٍ بِطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تَسْكَنُ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) (القصص/ 58).

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج/ 46).

(طَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ) (الروم/ 41-42).

(أَوْلَاكُمْ يَهْدِي لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي بَصِيرَةٍ) (السجدة / 26).

وفي هذا السياق يتحدث القرآن عن الاستبدال عندما تنحرف مسيرة الإنسان عن جادة الصواب والهدى والإصلاح، واستبدال أمة مكان أمة وزعامة ورياسة مكان رئاسة وزعامة، ذلك ما نقرأه في البيئات الآتية:

(إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التوبة / 39).

(هَآ أَزْنَتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِن نَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْزَتُمْ الْفُقَرَاءَ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (محمد / 38).

(وَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبَدَلْنَا لَأْيُكُمْ مَا أُرْسَلْنَا بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِن رَّبِّي عَلِيمٌ خَفِيضٌ) (هود / 57).

(فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) (الأنعام / 89).

وكما عرض القرآن نماذج من الشعوب والأمم والحكام الطغاة، وما لاقوا من دمار وعقاب، كذلك عرض نماذج أخرى من الذين أقاموا العدل واستقاموا وسلوكوا السلوك السوي فعاشوا في ظل العدل والمحبة والسلام.

نسجل من هذه الآيات قوله تعالى:

(الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحج / 41).

(وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ
الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونََنِي لَا
يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (النور/
55).

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَتَمَّةً
وَنَجْعَلَنَّ لَهُمُ الْوَارِثِينَ) (القصص/ 5).

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَتَمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا
بِرَأْيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (السجدة/ 24).

تلك مدرسة التاريخ، وتجربة الإنسان وموعظة القرآن (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكِرَاتٍ لِمَنْ كَانَ
لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (ق/ 37).